التماثيل والمصنوعات الحجرية والرسوم

تعد التماثيل والمصنوعات الحجرية والرسوم الصخرية والجدارية ضرباً من الفنون ذات الأهمية الكبيرة في دراسة التراث الحضاري، بما تقدمه من مادة علمية تساعد على كتابة التاريخ. وفي الفصول التالية نتعرض لهذه المواد الثلاث التي كان لها شأن في عصر ما قبل الإسلام حيث عثر على الكثير منها، فأضافت معلومات جديدة ومهمة في هذه الحقبة التاريخية.

التماثيل

تدخل صناعة التماثيل ضمن الفنون الصغرى التي مارسها الإنسان منذ البدايات الأولى لظهور الحضارات الإنسانية في العالم القديم. وقد مر الجنس البشري بمراحل زمنية طويلة، عرفت عند الآثاريين بالعصور الحجرية -عصور ما قبل التاريخ- تمكن الإنسان خلالها من الارتقاء بمهاراته اليدوية والفكرية، مستثمراً الموارد الطبيعية التي وفرتها البيئات المتباينة التي عاش فيها. وفي العصر الحجري الوسيط، بدأ الإنسان يدرك أهمية القوى والظواهر الطبيعية التي تمس حياته اليومية، فعبر عن ذلك بالفنون التي كانت وسيلته الأولى لترجمة أفكاره ومشاعره إلى أشكال مرئية ومحسوسة. ومن الناحية الأخرى جسد الإنسان بهذه الفنون نمط حياته المعتمدة على صيد الحيوانات في المقام الأول، وعلى ما تجود به البيئة من مصادر غذائية أخرى.

وتشير الدراسات الأثرية، المبنية على نتائج الكربون C14، إلى أن الإنسان في أوروبا عرف صناعة التماثيل مع بداية الحضارة الأرقناسية (٣٠-٢٥ ألف ق.م) عندما بدأت ميوله الفنية تظهر بشكل واضح. وتعود إلى هذه الفترة العديد

من الأعمال الفنية المميزة، ولعل أبرزها تمثال صغير لامرأة ضخمة الأرداف عثر عليه في موقع فلندورف في النمسا. وقد ارتبط هذا التمثال من الناحية الفنية والمعنوية فيما بعد بعدة تماثيل نسائية أخرى عرفت بمجموعة فينوس، وجدت في مواقع متفرقة في كل من جنوب غرب فرنسا وإيطاليا وتشيكيا وسلوفاكيا. وعلى أي حال، لم تكن مجموعة فينوس هي الوحيدة، بل كشف عن حوالي ستين تمثالاً آدمياً في مواقع مختلفة في أوروبا، مما يشير إلى بداية انتعاش صناعة التماثيل وانتشارها في أوروبا خلال فترة الحضارة الأرقناسية والماجدلينية.

أما التماثيل الحيوانية، فعلى الرغم من قلة ما كشف منها حتى الآن، فإنها جاءت معبرة، لأنها تصور من ناحية طبيعة السلالات الحيوانية في العصور القديمة، ومن الناحية الأخرى توضح مدى الانتشار الجغرافي الذي عاشت فيه، وهذا مما يساعد الباحثين على تصور طبيعة البيئات القديمة.

استخدم الإنسان في تلك الفترة أكثر من خامة في صناعة التماثيل، وكان العاج الخام الأكثر شيوعاً، وكذا الطين الممزوج بطحين المواد العظمية، وكذلك الحجارة السهلة التشكيل.

أما في الشرق الأدنى القديم، وعلى الرغم من إسهاماته في الحضارة الإنسانية، فإن بواكير صناعة التماثيل تأخرت عن بداية صناعة التماثيل في أوروبا. ففي وادي الرافدين، وبناءً على الأدلة المتوافرة حالياً، فإن بداية صناعة التماثيل تعود إلى أوائل الألف السادس قبل الميلاد، حيث كشف عن العديد من التماثيل الآدمية الطينية في كل من منطقتي الصوان وأريدو. وأشارت الدراسات المتعلقة بنماذج مشابهة لمثل هذه التماثيل إلى أنها ليست لعب أطفال كما كان يعتقد سابقاً، بل تحمل مفاهيم دينية تتعلق بالتكاثر والإخصاب، خاصة مجموعة التماثيل النسائية التي تظهر المرأة ضخمة الصدر والأرداف.

أما في وادي النيل، فإن فترة ما قبل الأسرات تعد المرحلة الأولى لتطور الفنون، حيث شهدت حقبة البداري (حوالي ٦١٠٠-٥٦٠٠ق.م) تطوراً واضحاً في الفنون المنقولة، وقد جاءت من مواقع تلك الحضارة دمى وتماثيل من الطين والعاج لأشكال بشرية وحيوانية. وفي الحقبة التالية التي سميت (نقادة -١) حوالي ٥٨٠٠-٥٥٠٠ق.م، تطورت الفنون لتشمل، إلى جانب الدمى البشرية والحيوانية،

أنواعاً مختلفة من الحلي وأدوات الزينة والذهب والصدف. كما زين فخار تلك الفترة برسومات من واقع حياتهم. إلا أن مرحلة انتشار الفنون في مصر تبلورت في حقبة (نقادة -٢) ٥٥٠٠-٥٠٠٠ق.م، لتسود الفنون الصخرية في صعيد مصر والصحراء الشرقية.

والواقع أن الحديث عن صناعة التماثيل في عصر الممالك العربية، يقودنا إلى الحديث أولاً عن المشاكل التي تواجه الباحث في تاريخ الفنون العربية القديمة، سواء فنون ما قبل التاريخ أو فنون العصور التاريخية. ففي الوقت الذي يواجه فيه الباحث النقص الكبير في الدراسات المتخصصة لفنون ما قبل التاريخ، يصطدم بمشكلة مزمنة أخرى وهي عدم اتفاق الباحثين في آثار الجزيرة العربية على تسلسل زمني مؤكد للممالك العربية التي عاشت في أرجاء الجزيرة العربية، خاصة الممالك الجنوبية وهي: سبأ ومعين وحضرموت وقتبان وأوسان. ومن الناحية الأخرى فإن أغلب الأعمال النحتية المنشورة في التقارير الأثرية جاءت إما من مواقع غير معروفة كلياً، أو من مواقع معروفة ولكنها غير مدروسة بشكل علمي.

ومع ذلك، يمكن القول إن إنتاج الممالك العربية القديمة من التماثيل يضاهي كثرة إنتاج أعرق حضارات الشرق الأدنى القديم. وهذا راجع إلى عدة أسباب لعل أبرزها هيمنة التأثير الديني الوثني الذي كان حافزاً قوياً لإنتاج التماثيل لتقديمها إما نذوراً أو هدايا لمعبوداتهم الرئيسية، وبذلك توضع في المعابد لتمثل حضور الشخص المتعبد أثناء حياته. وقد تصنع التماثيل أو رؤوس التماثيل لأسباب دينية أخرى ترتبط بالشعائر الجنائزية، ولذلك تدفن مع الموتى لاعتقادهم بوجود حياة أخرى.

ولم يقتصر دور التأثير الديني الوثني على إنتاج التماثيل فحسب، بل تعدى ذلك إلى الملامح الفنية والأسلوبية. فنجد أن الفنان العربي قد تأثر بنزعة الفنان الشرقي في إنتاج تماثيل تحاكي هيئة الإنسان الممتثل والخاشع لمعبوده، ويمكن ملاحظة ذلك على وضع الأيدي في التماثيل الجنوبية، التي تصمم في أغلب الأحيان وأياديها ممتدة إلى الأمام في وضع تعبدي.

ومن الناحية الأخرى كان للمبادلات التجارية الدولية التي اشتهر بها العرب أثر على الفنون العربية القديمة بشكل عام، وقد جاء هذا التأثير متفاوتاً على الممالك العربية بناءً على المتغيرات السياسية التي طرأت على المنطقة منذ حوالي القرن

صورة أسد منقوشة على قطعة من الحجر الصابوني – تاروت

الثالث ق.م، عندما آلت تدريجياً أجزاء كبيرة من الشرق الأدنى لسيطرة الإسكندر المقدوني. وكان الأنباط من أكثر العرب تأثراً بالتقاليد الفنية اليونانية والرومانية لعدة اعتبارات، لعل من أهمها قرب المناطق الجغرافية التي كان يعيش فيها الأنباط من مراكز الدولة السلوقية في بلاد الشام، وكذلك طبيعة النشاط التجاري الذي تميز به الأنباط، مما جعلهم في تواصل حضاري مستمر مع أغلب المراكز الاستيطانية المطلة على البحر المتوسط. وقد ترتب على ذلك ظهور الفنون النبطية بأنواعها المعمارية وأعمال النحت الصغرى كفنون رفيعة المستوى، تعكس قدرة الفنان النبطي، ليس فقط على استيعاب العناصر الفنية اليونانية وما تتطلبه من تقنية عالية، بل دمج هذه العناصر الفنية مع الفنون المحلية التي كان من حصيلتها ظهور نماذج فنية راقية تتميز بواقعية الفنون الهلنيستية وجمالها.

التماثيل الحجرية. تعد الخامات الحجرية منذ العصور الحجرية المصدر الرئيسي لصنع أدوات الإنسان وأسلحته. ولما تتميز به الجزيرة العربية من تنوع كبير في خاماتها الحجرية، فإنها أتاحت للفنان العربي انتقاء الخامات السهلة التشكيل. ويمكن القول إن الحجر الجيري والرخام كانا من أكثر أنواع الخامات الحجرية استخداماً في فنون الجزيرة العربية. ومع ذلك فهناك أنواع أخرى من الخامات ساد استخدامها في مناطق معينة. ونذكر على سبيل المثال استخدام

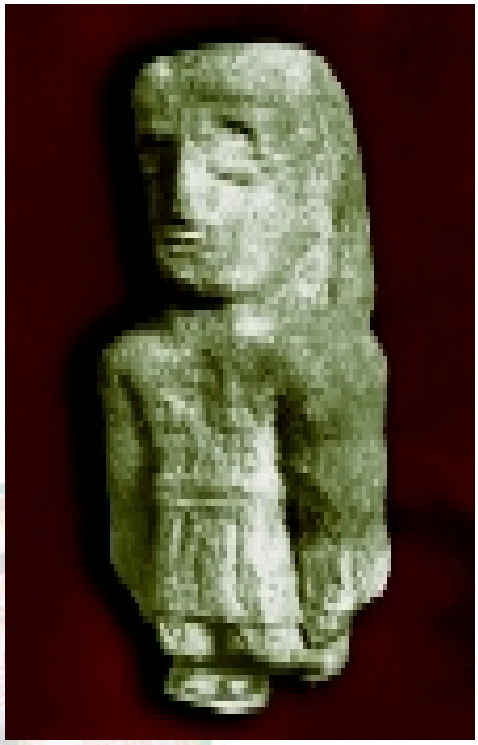

تمثال لحياني مصنوع من الحجر الرملي، عثر عليه في معبد فوق جبل أم درج – العلا

تمثال رخامي يصور شخصاً في وضع تعبد جنوب الجزيرة العربية

الحجر الرملي الأحمر في المواقع الأثرية التي ظهرت في واحة العلا وحواضرها.

استحدث العرب قبل الإسلام أكثر من نموذج من التماثيل الحجرية الآدمية ولكنها اختلفت من حيث الأسلوب والخصائص الفنية؛ تارة لأسباب تتعلق بالوظيفة التي صنع من أجلها التمثال، وأخرى للتأثيرات المحلية والاقتصادية التي شهدتها أقاليم الجزيرة العربية. ففي جنوب الجزيرة كان هناك نوعان أساسيان من التماثيل الحجرية مثَّل أحدهما النموذج التقليدي والمحلي في الوقت نفسه، وقد اكتسب هذا النوع أسلوبه الفني وحافظ عليه بفعل العامل الديني. ولعل أهم المميزات الفنية لهذا النوع تتمثل في صغر حجم التمثال، حيث يبلغ طوله تقريباً حوالي المتر، مع التركيز على الرأس وتفاصيله خاصة الأمامية. وفي أغلب الأحيان تُقطع هامة الرأس بشكل مستوٍ وتكون محدودة الوضع والحركة، إذ تنحت معظم التماثيل إما واقفة أو

جالسة. في حين تظهر الأيدي ممتدة إلى الأمام، وهي وقفة تتميز بها التماثيل الجنوبية في الجزيرة العربية، وبالإضافة إلى ذلك تبدو كثرة الزوايا في التمثال، وهذا ناتج في الأصل عن اتباع الفنان للأسلوب التخطيطي في المراحل الأولية لصناعة التمثال.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيراً من نوعية هذه التماثيل يكتب عليها اسم صاحب التمثال، مما يؤكد وظيفتها الدينية كنذور تقدم إلى معبوداتهم الرئيسية. وقد ارتبطت هذه النوعية من التماثيل بالمعابد والمقابر. واتخاذ الفنان الجنوبي هذا النمط من التماثيل لا يعني بأي حال من الأحوال عجزه عن نحت التماثيل بواقعية، وقد أثبت الفنان الجنوبي موهبته ومهارته العالية في مجال الفنون المعمارية وما تحتويه من عناصر زخرفية في غاية الجمال والدقة. ولكن يبدو أنه توارث هذا النمط، واستمر في تقليده اعتقاداً بأنه النمط المناسب لخدمة الهدف الديني الذي صنعت من أجله هذه التماثيل. وللأسباب الدينية نفسها، اشتهرت الممالك العربية الجنوبية بغزارة إنتاج رؤوس التماثيل الآدمية الحجرية، حيث ركز النحات في أغلب الأحيان على ملامح الوجه فقط تاركاً الأجزاء الخلفية والجانبية غير مشغولة.

رأس تمثال رخامي – جنوب الجزيرة العربية

وتعكس صناعة هذه التماثيل طبيعة الوضع الاقتصادي للممالك الجنوبية وعلاقتها التجارية المستمرة بالمراكز الحضارية اليونانية والرومانية المنتشرة في بلاد الشام؛ ذلك أن بعض الأعمال الفنية الجنوبية ومنها التماثيل الحجرية وقعت تحت تأثير المدارس الفنية اليونانية وما تمتاز به من الواقعية والحركة. ولا يستبعد أن بعض التماثيل الجنوبية ذات الطابع الهلينستي كانت تباع ضمن

بضائع أخرى في الموانئ العربية الجنوبية، خاصة مع ازدهار الخط التجاري البحري في القرون الميلادية الأولى عندما بدأت السفن الرومانية تبحر بشكل مباشر من أعالي البحر الأحمر إلى باب المندب.

التماثيل الفخارية. على الرغم من تنوع الصناعات الفخارية في حضارات الجزيرة العربية، إلا أن صناعة التماثيل الفخارية، سواء الآدمية أو الحيوانية منها جاءت متواضعة وقليلة، خاصة إذا قورنت بأعداد التماثيل المصنوعة من الخامات الأخرى. وربما يعود هذا الأمر إلى عدة أسباب لعل من أهمها، أن الفخار من المواد السهلة التلف والاندثار، هذا وقد اهتم الإنسان في الجزيرة العربية بصنع معبوداته من مواد صلبة، غير قابلة للتلف، لتبقى فترة طويلة، لذلك اتجه إلى صناعة التماثيل من الحجر والمعادن. أما الطين الفخار فقد استخدم على نطاق ضيق وصنعت منه الدمى الدينية الصغيرة الحجم.

ويمكن القول إن معرفتنا بأنواع التماثيل الفخارية القديمة وأساليبها ما تزال في أطوارها الأولى، ربما لقلة الحفريات الأثرية من ناحية، وقلة التماثيل المكتشفة من ناحية أخرى. كما تجدر الإشارة إلى أن أغلب تلك التماثيل المنشورة في التقارير الأثرية جاءت من مواقع أثرية مجهولة.

وقد حفظت لنا الأبحاث الأثرية التي أجريت أكثر من نوع من التماثيل الفخارية الآدمية والحيوانية. أما الآدمية، فهي في أغلب الأحيان بدائية من حيث الشكل والتقنية. وعلى الرغم من تنوع أشكالها وعناصرها الزخرفية فإنها

تمثال من الفخار – اليمن

تشترك في بعض الخصائص الفنية والأسلوبية العامة، إذ يتسم أغلبها بأشكالها الأسطوانية المصمتة، وبعضها يحتوي على قواعد دائرية الشكل. أما الأيدي فقد شكلت بصورة أولية على هيئة بروز مثلث الشكل تقريباً ومسحوبٍ إلى الخارج على جانبي الجسم دون التعرض لإظهار تفاصيل الأيدي.

وقد عثر في جنوب الجزيرة العربية على عددٍ من هذه الأعمال الفخارية. وتوصلت دراسة مثل هذه التماثيل إلى أنها ليست لعب أطفال، كما كان يعتقد بعض الدارسين، بل إنها صنعت لأغراض دينية، إذ كانت تقدم إما كنذور لمعبوداتهم مثل عثر وغيره من معبودات الجنوب، أو ربما استخدمت كتعويذة، خاصة تلك النماذج الفخارية التي تحتوي على ثقوب صغيرة على الجانبين. كما يرى بعض الباحثين أن هناك أنواعاً من هذه التماثيل الفخارية لها أهمية تتعلق بالإخصاب والتكاثر.

وقد حفظت التقارير الأثرية بعض النماذج من التماثيل الفخارية الآدمية والحيوانية، خاصة تماثيل الجمال، التي كشف عنها في قرية الفاو، وشرق الجزيرة

تمثال لامرأة – ثاج – المنطقة الشرقية

العربية في موقع ثاج وفي حفريات دومة الجندل.

أمّا تحديد تاريخ لمثل هذه التقاليد الفنية، فإن الباحث الألماني راثجنز Rathjens حاول تحديد تاريخ مجموعته بالفترة الواقعة ما بين الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، إذ قارن مجموعته مع التماثيل السومرية والآشورية في حين يرى آخرون أن مجموعة راثجنز من العصر الحديدي (١٢٠٠ق.م-٩٠٠ق.م). ولكن لا يمكن تحديد تاريخ هذه الأعمال الفنية بشكل مؤكد إلاّ بإجراء حفريات علمية. أما ما وجد في قرية الفاو فإن تواريخه تتراوح بين القرن الثالث ق.م والثالث الميلادي، وما وجد في شرق الجزيرة العربية فإنه من عصر الممالك العربية الوسطى. أما تلك التي وجدت في دومة الجندل فمن العصر النبطي (القرن الأول ق.م-القرن الثاني الميلادي).

التماثيل المعدنية. تعد التماثيل المعدنية وما تتطلبه من تقنية ومهارة عالية في فن الصناعة، من المعايير الرئيسية لقياس رقي الفنون والحضارات المنتجة لها. وعلى الرغم من تواضع معرفتنا بمراكز التعدين القديمة التي استخدمها العرب قبل الإسلام في صناعاتهم المعدنية، فإنهم تركوا لنا نماذج رائعة من الصناعات المعدنية، سواء من التماثيل الآدمية والحيوانية، أم من المشغولات المتنوعة، مثل الحلي النسائية كالأساور والأقراط والخواتم، والصناعات المعدنية الأخرى.

ويمكن القول إن صناعة التماثيل المعدنية جاءت أكثر تطوراً من صناعة الفنون الصغرى الأخرى، سواء من ناحية الأسلوب أم الموضوع. فمن ناحية الأسلوب يلاحظ اختلاف التماثيل المعدنية عن الحجرية من حيث إنها أكثر واقعية ودقة على الرغم من صغر أحجامها. كما أن الفنان تمكن من استيعاب التقنيات المتعلقة بصناعتها حين استخدم تقنية التماثيل المفرغة التي تحتاج إلى استعمال الشمع والقوالب. كما تحرر الفنان من الشكل التخطيطي الذي كان يلازمه في صناعة التماثيل الحجرية.

وأما من ناحية الموضوع الزخرفي، فنجد تنوعاً كبيراً لهذا النوع من الصناعات، إذ تعددت الأوضاع التي صورت فيها التماثيل الآدمية، وتحررت بشكل ملحوظ من الأوضاع التقليدية التي نراها بشكل متكرر في التماثيل الحجرية التي تظهر الإنسان إما واقفاً والأيدي ممتدة إلى الأمام، وإما جالساً والأيدي في الأوضاع التعبدية نفسها للتماثيل الواقفة. ولذلك يمكن القول إن التماثيل المعدنية العربية، خاصة تلك التي اكتشفت في الأجزاء الجنوبية والوسطى من الجزيرة العربية، جاءت أكثر واقعية وحيوية من التماثيل الحجرية التي عثر عليها في المناطق نفسها. ولا شك أن موقع الجزيرة العربية بين الحضارات القديمة ودورها التجاري جعل منها ممراً حضارياً تأثرت نتيجة له فنونها المعدنية المتأخرة بالتيارات الفنية اليونانية والرومانية.

وقد حفظت لنا التقارير الأثرية المنشورة العديد من النماذج الفنية الراقية. ونذكر منها على سبيل المثال التمثال البرونزي الذي كشف عنه في معبد سبأ، ويمثل رجلاً واقفاً يرتدي الوزرة الجنوبية التقليدية ويلبس قطعة من جلد نمر على ظهره. أما الأيدي والأرجل فقد شكلت

على نحو رائع يعكس قـدرة الفنان على تشكيل الأشخاص في وضع مفعم بالحركة والحيوية. ويبدو أن اليد اليمنى كانت تحمل شيئاً، ربما كان صولجاناً أو عصا. ويذكر النقش الموجود على رقبة هذا التمثال أنه قدم كنذر مـن شخص عرف باسم معد كرب إلى المـعبود السبـئي ألمقه. وتجـدر الإشارة إلى أن هذا العمل الفني أرخ له بالقرن الثامن أو السابع قبل الميلاد.

ومن الأعمال البرونزية المميزة تمثال يصور سيدة جالسة عرفت باسم برعت، كشف عنه في البوابة الجنوبية لموقع تمنع عاصمة مملكة قتبان، ويعـود تاريخ هذا التمثال إلـى القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد.

وبالإضافة إلى ما سبق تحتوي التقارير والأبحاث الأثرية على العديد من التماثيل المعدنية الـتي لم تقتصر علـى الأشكال الآدمية وحدها، بل تضم أنواعاً متعددة من الحيوانـات التي كانت موجودة فـي الجزيرة العربـية، مثل الجمال والغزلان والأسود والـثيران والخيـل والثعـابين.

تمثال من البرونز يصور رجلاً واقفاً يرتدي وزرة
معبد سبأ – اليمن

تمثال من البرونز يصور امرأة جالسة
موقع تمنع – اليمن

ولاشك أن لبعض هذه الكائنات مدلولات دينية عند سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام.

المصنوعات الحجرية

يعتمد تقسيم العصور الحجرية على ما طرأ على الأداة الحجرية من تطور، سواء في الصناعة أم في الاستخدام. واقتصرت تقنيات الأدوات الحجرية خلال تلك العصور على ما يرضي الحاجة ويلبي الطلب، فانحصرت في صناعة مكاشط وشفرات وشظايا مشذبة الحواف ومثاقب وبلطات ومدقات.

وخلال العصر الحجري الحديث ظهرت بوادر رقي التقنية وتخصص الأداء الوظيفي، فظهرت الأدوات الدقيقة وامتازت بما يعرف بنصال السهام والحراب وغيرها.

ومنذ بداية الألف السابع قبل الميلاد بدأ الإنسان يميل إلى حياة الاستقرار في أماكن متفرقة من منطقة الشرق الأدنى، معتمداً على إنجازات حضارية لم يعهدها من قبل. وقد تركزت تلك الإنجازات في استئناس بعض الحيوانات كالماعز والخنزير والضأن والكلاب وغيرها، وتوطين بعض النباتات كالقمح والشعير. وصاحب ذلك توسع في صناعة أدوات تلبي مقتضيات الحياة الجديدة، فظهر المنجل والمسحاة والمحراث ومن ثم الرحى، وهي أدوات هيأها الإنسان من أحجار الصخور المتاحة في بيئته وقد دعته إليها الحاجة وأملتها عليه الظروف.

وقد عرف الإنسان أهمية الحجر في تلبية الكثير من متطلبات حياته منذ أزمان سحيقة. بدأها باستعماله سلاحاً للدفاع عن نفسه، ثم أداة لذبح صيده وتقطيعه. واستخدمت واجهات الكثير من الصخور سجلاً دون الإنسان عليها، بالرسوم والصور، العديد من نشاطاته. وفي العصور التاريخية ابتُكرت المسلاَّت وهي عمود طويل منحوت من الصخر يسجل على إحدى واجهاته أخبار الانتصارات العسكرية أو القرابين الدينية، وغالباً ما يقام في ساحات المعابد.

بدأت بواكير التجمعات البشرية المنظمة تحتل مكاناً بارزاً في مسارها التاريخي منذ الألف الثاني قبل الميلاد، حيث بلغت فيه مرحلة النضج فيما اصطلح على تسميته حضارياً بفترة الممالك العربية. وخلال تلك الفترة ازدهرت الصناعات وتطورت الحرف وبرز مفهوم التخصص المهني في مختلف

الحرف. ولم تكن صناعة الأدوات الحجرية بمعزلٍ عن تلك الانطلاقة، إذ كشفت لنا التنقيبات الأثرية التي أجريت في الجزيرة العربية إجمالاً -أو في المملكة بصفة خاصة- عن الكثير من الأدوات الحجرية التي صنعت من أنواع مختلفة من الصخور، أهمها حجر البازلت والحجر الصابوني.

الأدوات الحجرية. وتأتي في مقدمتها الرحى، وتتكون الرحى من جزءين رئيسيين يشذبان من الصخر على شكل دائري بقطر ٥٠سم، قد تزيد وقد تنقص حسب الحاجة، ويتوسطهما فتحة دائرية لإدخال الحبوب المراد طحنها تسمى لهاة ويكون الطحن بأن تدار الطبقة العليا، ويكبّ الحب في اللهاة شيئاً فشيئا فيعمل ثقل الحجر وما فيه من ندوب على سحق الحبوب، وتعتمد درجة السحق على ارتفاع الطبقة العليا، فإن كانت مرتفعة جرشت الحبوب جرشا، وإن كانت منخفضة دقت الحبوب دقيقا، ويخرج الجريش أو الدقيق من بين جوانب الرحى بدفع بعضه بعضا ويتجمع في حوض يحيط بالرحى أو على فراش.

ولأهمية الرحى، تخصص أناس بإصلاح الحجر لتحويله إلى أداة صالحة لطحن الحبوب أو لاستخلاص الزيوت. وليس يصلح كل حجر لأن يكون رحى، ولهذا فعلى الخبير بالصنعة اختيار الحجر الصالح من الخام المناسب، وتهيئته ليكتسب الاستدارة ثم عليه عمل فتحة إدخال الحبوب ونقرة الرائد الذي تدار به وغير ذلك مما يتعلق بهذا العمل.

جزء من رحى كبيرة – موقع ضَنْكَان

وتكون بعض الرحي كبيرة ثقيلة ذات قطر واسع، وتستخدم في طحن بعض المواد الصلبة كمعاصر استخلاص الزيوت. وتستخدم الحيوانات كالثيران والجمال والحمير لإدارة مثل هذه الرحى. وقد عُثر على أنماط منها في جرش والأضواء في نجران وأماكن أخرى، وهي من الكبر والثقل بحيث يعد نقلها من مكان إلى آخر أمراً شاقاً جداً.

وتعد الرحى إنجازاً حضارياً في فكرتها وصناعتها ووظيفتها، وهي دليل واضح على التطور التقني في مجال الصناعة إبان عصر الممالك العربية.

ولم يقتصر إنتاج الرحى على تلبية احتياجات المنازل بل امتد ليشمل قطاعات اقتصادية أخرى، أهمها العصارة والطّحانة. والطحانة حرفة مورست في الجزيرة العربية منذ العصور القديمة، وقد عثر على شواهد من ذلك في حفريات قرية الفاو، إذ كشفت الحفريات التي أجريت بها عن وجود أماكن كثيرة تحتوي على مطاحن متنوعة وبجوارها مخازن للحبوب وأخرى للدقيق.

ومن الأدوات الحجرية المرهكة وهي مشتقة من رهك الشيء رهكاً إذا سحقه سحقاً شديداً. وفي لسان العرب: رهكه يرهكه رهكا: جرشه بين حجرين. وتستخدم المرهكة لطحن الحبوب، وتتكون من قطعة حجرية، غالباً ما تكون مستطيلة بتجويف بسيط في سطحها العلوي، تجرش عليها الحبوب بأداة أسطوانية تشبه يد الهاون تمرر جيئة وذهاباً، ويطلق عليها المسحقة.

ومن الأدوات الحجرية أيضاً معاصر السمسم التي تديرها الحيوانات. وكذلك المهاريس والهرس الدق، ومنه الهريسة. وهرس الشيء يهرسه هرساً: دقه وكسره. والمهراس الآلة التي يهرس بها وتسمى أيضاً المنجار، وهي أداة حجرية مجوفة مستديرة الفتحة عمودية على شكل أسطواني، وتسمى الهاون، واللفظ

رحى منزلية مصنوعة من الحجر – موقع قرية الفاو

معصرة سمسم حجرية في نجران

فارسي معرب. ويوضع داخل الهاون الشيء المراد هرسه ويدق بأداة يطلق عليها يد الهاون، وهي من خامة المهراس الحجرية نفسها.

ومن الأدوات الحجرية المجامر ومفردها مجمرة وهي أداة يوضع بها الجمر والعود أو الدخون. وقد وجدت المجامر في كافة الحفريات التي أجريت في المواقع الأثرية في الجزيرة العربية. ولم يكن وجودها نادراً؛ فقد عثر عليها بأعداد كبيرة وأشكال متنوعة، منها الكبير الثابت ومنها الصغير المتنقل، ومنها ثلاثي القوائم أو رباعيها أو بلا قوائم.

ولأهمية المجامر وجد على بعضها كتابات بخط المسند تحمل سطورها عبارات تقديسية وأدعية تعبدية، إضافة إلى ذكر بعض أنواع الدخون المستعمل كالرند. ولم يقتصر استعمال المجامر على الطقوس التعبدية والجنائزية فقط، بل وجد الكثير منها يستعمل لأمور دنيوية، وقد عثر على أنواع كثيرة من المجامر من حفرية قرية الفاو وهي تمثل كافة المراحل التاريخية التي عاشتها المدينة.

والمساحن من الأدوات الحجرية وهي أداة إما كروية أو بيضية بحجم راحة اليد، وتكون ناعمة الملمس، وتستخدم لسحن المواد الخشنة المراد دقها وسحنها للاستعمالات الطبية أو التجميلية، كالكحل والنشوق وما إلى ذلك. وقد عثر على مساحن متنوعة في حفرية قرية الفاو والربذة وغيرها من أماكن التنقيبات الأثرية في المملكة. وليس هناك ما يؤكد تصنيعها ولكنها توجد بكثرة مهيأة طبيعياً، لا سيما على حواف الأودية التي تخترقها السيول بين آونة وأخرى.

وهناك أحجار لها خاصية السَّن، تُشحذ بها القواطع المعدنية كالسكاكين وما شابهها، ولاتزال تؤدي الغرض نفسه حتى اليوم.

الأواني الحجرية. على الرغم من شيوع استعمالات الفخار للأواني المتعلقة بالطبخ والأكل والشرب والتخزين والحياة اليومية بشكل عام، فإن ذلك لم يقلل من أهمية استعمال الآنية المصنعة من الحجر، لا سيما الحجر الصابوني. وربما يعزى ذلك إلى انصراف أذواق الطبقات الثرية والمتوسطة عن أواني الفخار إلى أواني الحجر، إيثاراً لمتانتها. وقد اكتسب صناعها خبرة وافية فصنعوها بوفرة وإتقان. ولم تكن الأواني الحجرية بحاجة إلى التحلية بالرسوم، بل تكفيها جودة الأحجار ودقة الصقل وسلامة الذوق. وقد صنعت من الأحجار الدقيقة الحبيبات ذات التموجات المتعددة الألوان، وشكلت على هيئات أسطوانية وشبه بيضية وشبه كروية.

وشيوع الأواني الحجرية في الجزيرة العربية يحملنا إلى المحاجر التي يستخرج منها خام تلك المصنوعات، وكان من أشهرها معدن البُرْم، قرية بين مكة والطائف. والبُرْمة جمعها بُرْم وبُرَم وبرام، وهي قدور تصنع من حجر صلد قوي يستخرج من موضع يسمى المعدي لايبعد كثيراً عن الطائف. ويوجد الحجر الصابوني بوفرة في أماكن متفرقة من المملكة العربية السعودية، منها منطقة الدوادمي والطائف وحجلة قرب أبها وظهران الجنوب، وهو على شكل صخور أو كتل صخرية في طبقات الأرض.

أما القدور فتصنع من خام الحجر الصابوني، ومادته كما ذكرنا متوافرة في معظم أنحاء الجزيرة العربية. ويمتاز الحجر الصابوني بليونته وسهولة تشكيله أثناء تصنيعه، ثم بصلابته ومتانته بعد تصنيعه.

وتختلف القدور من حيث الحجم والشكل باختلاف الغرض الذي صنعت من أجله. والقدر تطلق على إناء الطبخ من معدن أو فخار أو حجر، ولذا فقد ميزت قدور الطبخ الحجرية باسم البرم، وقد شاعت صناعتها في مختلف

قدر من الحجر الصابوني من فترة ما قبل الإسلام
موقع الفاو

الحواضر إبان عصر الممالك العربية. وعثر على نوعيات مختلفة من القدور في الحفريات التي قامت بها البعثة الأمريكية في اليمن في بداية الخمسينيات من هذا القرن، لا سيما في مدينة تمنع. وقد كشف عن نوعيات مشابهة في كل من قرية الفاو وجرش والأخدود في نجران وتيماء وثاج. ومن الملاحظ أن بعض من قدور الحجر الصابوني يمكن إصلاحها وجبرها إذا تعرضت لكسر أو شرخ، مما يوحي بارتفاع أسعارها وندرة محترفي صناعتها.

وهناك أوانٍ حجرية ثابتة لا تنتقل من مكان صناعتها إلا بصعوبة بالغة، كأحواض المياه التي تنتشر في الفاو، ويبلغ حجم بعضها ٢٠٠×١٠٠سم بسماكة تصل إلى ١٥سم وعمق قد يبلغ ١٠٠سم، في حين توجد أوان لحفظ المياه يستحيل نقلها من مكان تصنيعها، مثل محلب الناقة في موقع الخريبة بمنطقة العلا.

ومن الأواني الحجرية كاسات صنعت من الحجر الرملي وجد بعض منها في حفريات الحجر التي قامت بها إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، وفي منطقة

حوض من الحجر، اشتهر بمحلب الناقة في موقع الخريبة – منطقة العلا

الظهـران عثر على فـنجان وإبريق مـن الحجر الصابوني عليهما زخارف هندسية غائرة.

ولعل محتويات متحف قسم الآثار والمتاحف بـكلية الأداب بجامعة المـلك سعود خير شاهد لإعطاء صورة واضحة عن مدى تطور صناعة الأواني الحجرية خلال عصر الممالك العربية، لاسيما تلك النماذج التي عثر عليها في قرية الفاو. فقـد اشتمـلت بالإضـافة إلى الـقدور والكاسات وكـؤوس الشرب على أوان أخرى أدق فـي صناعتـها وأجمـل في أشكالها، كالمكاحل والمسارج والمجسمات الآدمية والحيوانية.

إناء من الحجر الجيري (قرية الفاو)

المصـنوعات الحجـرية في العـصر الإسلامي. وهي امتداد للمصنوعات الحجرية التي عرفتـها الجزيرة العربية قبل الإسلام، غيـر أنها تطورت مع تطور الـفنون والصـناعات الأخرى نتيجة للـنمو الحضاري الذي شهدته الجزيرة العربية.

فبـالإضافة إلـى قطع الصـخور الرملية والجرانيتية والرخامية وتسويتها لأغـراض بنـاء المـنازل والـقـصور والحصون والمساجـد وتشييد السدود والأسوار وحفر الآبار وغيرها، كان من الصناع مـن يتقن قطع الأحجار وتهذيبها للكتابة عليها، سواء كانت كتابة نقوش شاهدية أم نقوش تذكارية تؤرخ للمباني العامة التي كان يقيمها الخلفاء والـسلاطين وغيرهم. ومـنذ بداية العـصر الإسلامي كانت هناك مصنوعات حجرية متنوعة استعملها المسلمون في حياتهم اليومية. وكانت لهـا أسمـاء معروفـة ومذكـورة في المصادر الأدبـية، ومنها علـى سبيل المثـال: القصعـة والقدح والمغـتسل والصاع والتـور والمخضب والأرحية والمساحن والأنابيب الحجرية والسواني والأحواض الحجرية أي القراوة ونحو ذلك.

ونتيجة لتطور بناء المدن الإسلامية والمنازل والمحطات والموانئ تطورت صناعة الأواني الحجرية، وعلى وجه الخصوص تلك المصنوعة من الحجر الصابوني.

وازدهرت المصنوعات الحجرية وتزامنت مع تطور الصناعات الفخارية والخزفية بل فاقتها في قوة التحمل وطول أمد الاستخدام، فضلاً عن أن بعضها حظي بزخارف بديعة.

وقد اشتهرت بعض المناطق في مختلف أرجاء الجزيرة العربية بوجود معادن ومراكز لصناعة أواني الحجر الصابوني، خاصة في الحجاز وتهامة وعسير. وعلى سبيل المثال يذكر الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أن الحوراء قرية عامرة وأهلها أشراف وعندهم معدن يقطعون فيه الأبارم ومنها يتجهز بها إلى سائر الأقطار. وبالقرب من الطائف موضع يقال له معدن البرام، ذكر الحربي في كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة أنه هو الموضع الذي تعمل فيه البرام تنحت من جبل عظيم. وجاءت المسوحات الأثرية في المملكة مؤكدة وجود محاجر متنوعة، خاصة محاجر الحجر الصابوني. وعلى سبيل المثال محاجر شرق أملج وموقع وضاخ وقرية غرابة. وقد أسفرت المسوحات والاكتشافات الأثرية على امتداد طرق الحج وفي عدد من المواقع الأثرية عن العثور

إناء من الحجر الصابوني، يعود تاريخه إلى العصر العباسي موقع الربذة

على أصناف عديدة من كسر الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني، وهي أجزاء من قدور للطبخ وأطباق ومسارج. ومن المواقع التي أمدتنا بعينات من هذه المصنوعات: زبالة وفيد وسميراء ومعدن النقرة والربذة والمابيات وعَثَّر والرغيب في الخرج وموقع الحائر بالقرب من المنصورية، وغير ذلك من المواقع الكثيرة.

وقد أمدتنا الحفريات الأثرية في الرَّبَذة بأصناف كثيرة من أواني الحجر الصابوني التي كانت تصنَّع في الموقع نفسه، حيث عثر على قطع تالفة أو غير مكتملة بالإضافة إلى وجود منجم للحجر الصابوني بالقرب من الموقع. ومن الأواني المكتشفة في الرَّبَذة مسارج بأحجام وأشكال مختلفة، منها ما هو على شكل قارب ومنها ما صنع على هيئة أشكال نجميَّة أو فتحات إشعاعية، وهناك أوان وقدور للطبخ ومكاييل وأوزان وبوتقات وسدادات وأغطية وأحجار مصنَّعة للتسلية وأدوات زينة كالدلايات وغيرها ومجامر وأختام.

وظهرت على بعض الأواني أشكال زخرفية هندسية بديعة تدل على الذوق الرفيع الذي كان يتمتع به الصانع في العصر الإسلامي المبكر.

الرسوم

تعد الرسوم بنوعيها الصخرية والجدارية من الفنون التي تلقي الضوء على تاريخ الحضارات القديمة، إذ رسم الإنسان القديم وحفر على جدران كهوفه ومنازله وبأدواته البدائية مناظر عديدة تمثل صوراً من حياته، في صيده وفي صراعه مع الحيوان من أجل الحياة.

وقد حفرت هذه المناظر أو رسمت بطريقة بدائية تعبر عن تلك الفترة القديمة التي عاشها الإنسان. وعثر في المملكة العربية السعودية على رسوم صخرية وجدارية في أماكن مختلفة، ألقت الضوء على مزيد من حضارة الإنسان القديمة. وفيما يلي عرض موجز لهذه الرسوم.

الرسوم الصخرية. الرسوم الصخرية أحد المصادر الأساسية لدراسة حضارات ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية. إذ هي سجل مصورٌ يحمل في ثناياه معلومات كثيرة ترتبط بأنماط حياة الناس خلال العصور الحجرية، وما يتعلق بذلك من مفاهيم اجتماعية، ودينية واقتصادية. ولذلك تعدّ الرسوم الصخرية، على الرغم من بدائية أسلوبها، حلقات وصل بين أقدم المجتمعات التي عاشت في جزيرة العرب ومجتمعنا الحديث.

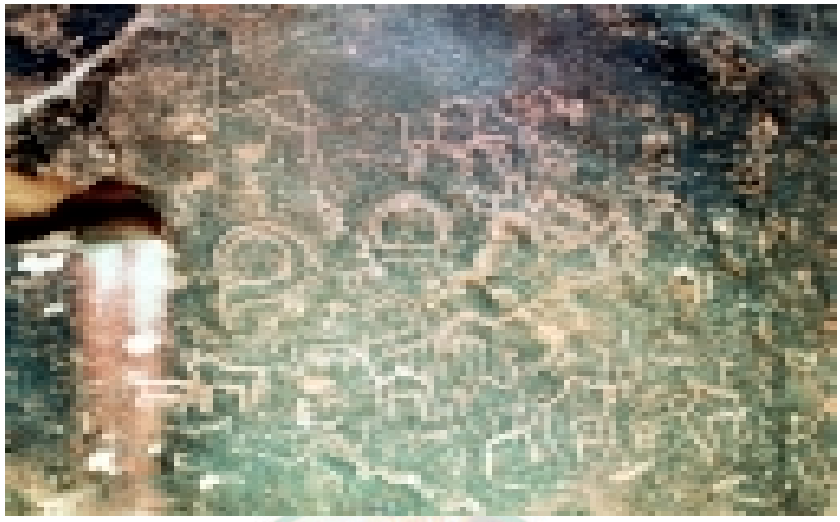

رسوم صخرية لحيوانات متنوعة من موقع سواج بالقصيم

واكتشفت الرسوم الصخرية في العديد من الجبال المنتشرة في أقاليم المملكة، ومن أبرز المواقع الأثرية التي احتوت على هذه الرسوم: جبّة وحائل وسكاكا والحناكية وقلوة ومدائن صالح وجبل غنيم وعسير وبيشة وقرية الفاو ووادي الدواسر وأبها والطائف، بالإضافة إلى مواقع أخرى. وتشتمل الرسوم الصخرية المكتشفة على العديد من الموضوعات الرئيسية التي من أهمها الأشكال الآدمية والحيوانية، وهي غالباً ما تظهر بشكل تجريدي. ثم أسلحة الصيد بأنواعها، والأوسمة، هذا بالإضافة إلى وحدات موضوعية أخرى مستوحاة من البيئة كالأشجار والجبال. أما من ناحية الأسلوب، فقد نفذت هذه الرسوم بأساليب مختلفة، مثل أسلوب الحفر الغائر الأكثر شيوعاً، كما استخدم أسلوب النحت البارز والغائر. وقد نتج التباين في أسلوب التنفيذ عن اعتبارات تتعلق بمهارة الفنان من ناحية، ولأسباب تتعلق بالتأثير البيئي والذوق الإقليمي من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من قلة الدراسات والبحوث المتصلة بالرسوم الصخرية في الجزيرة العربية، إلاّ أننا من خلال المادة المنشورة، يمكن أن نستخلص بعض الخصائص الفنية العامة لهذه الرسوم؛ فهي تتميز بكثرة استخدام الخطوط المستقيمة، وقد ترتب على هذا الأسلوب ظهور الأشكال، خاصة الآدمية، على نحوٍ تجريدي، وفي بعض الأحيان على نحوٍ

رسوم صخرية في جنوب وادي الدواسر

رمزي. ومع ذلك، هناك بعض الأعمال، خاصة المتأخرة، التي اكتسبت بعض الواقعية. كما صممت معظم هذه الرسوم لترى من الأمام. وتفتقر الرسوم الصخرية المبكرة، التي تعود إلى العصر الحجري القديم، إلى المنظور الأفقي، ولذلك تظهر المناظر وكأنها عائمة في السماء لعدم استنادها إلى أرضيات أو خلفيات.

ومن المواضع الأساسية التي تكرر ظهورها في الرسوم الصخرية، مشاهد الإنسان وهو يصيد الحيوانات، وكذلك مشاهد احتفالية لها في بعض الأحيان مضامين دينية أو سحرية. كما حفظت لنا الرسوم الصخرية أنواع السلالات الحيوانية التي كانت تعيش في الجزيرة العربية، مثل الجمال والخيل والغزلان والثيران والأسود والنعام والثعابين، وحيوانات أخرى.

ويمكن أن نستدل من هذا التنوع في السلالات الحيوانية وما تتطلبه من مصادر غذائية متنوعة، على أن البيئة خلال العصور الحجرية كانت أغنى وأفضل مما هي عليه الآن من حيث معدلات سقوط الأمطار ووفرة الغطاء النباتي. ومن الرسوم الصخرية الجديرة بالإشارة، نذكر

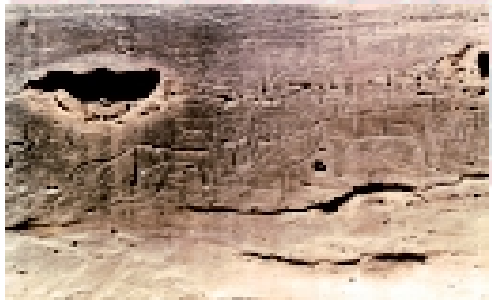

رسوم صخرية بالحناكية (المدينة المنورة)

على سبيل المثال تلك الأعمال الفنية المكتشفة في جبّة وكلوة والحناكية وبئر حمى.

الرسوم الجدارية. تعد الرسوم الجدارية أكثر تطوراً من الفنون الصخرية، إذ تمتاز بأسلوب خاص في تنفيذ المناظر الجدارية فضلاً عما تتسم به من استخدام الألوان.

وقرية الفاو (القرن الثالث ق.م- القرن الثالث الميلادي)، من أهم المواقع الأثرية التي زودتنا بنماذج رائعة من الفنون الجدارية، وقد اكتشف معظمها في المنطقة السكنية داخل الغرف المجصصة. ومن الواضح أن سكان قرية الفاو عبّروا، خلال أوقات فراغهم، عما يجول في خواطرهم من مشاعر وتخيلات ترجمت إلى لوحات فنية راقية، أظهرت ذوقهم الفني المترف. ولا شك بأن مثل هذه اللوحات كانت تزين أركان الوحدات السكنية التي عاشوا فيها. وقد تنوعت الموضوعات الفنية لهذه اللوحات، ففيها ما يصور مشاهد للإنسان في أوضاع مختلفة، رسمت بشكل واقعي جميل. أما الموضوعات الأخرى فتشمل مناظر متنوعة مثل الأسماك والزهور والأشجار، وكذلك مناظر صيد الحيوانات. وقد استخدمت في عملية الرسم العديد من الألوان، خاصة اللون الأحمر الذي كان أكثرها استخداماً، ثم اللون الأسود، والبني والأبيض.

ومن هذه الأعمال، مشهد يصور شخصية مميزة، عرفت من خلال النقش

رسم منحوت على أحد الجدران في الأخدود (نجران)

رسم منحوت على أحد الأحجار لجدار خارجي في الأخدود (نجران)

باسم زكـي، وهو رسم لرأس رجل ذي شعر مموج، وعيون كبيرة دائرية. أما الشوارب فتظهر على شكل خطين مائلـين. وفي خلفـية اللوحة تـظهر عناصر زخرفية تـتمثل بأشكال نباتية تمثل أوراق العـنب وعناقيده. وعلى الجانبين تظهر سـيدتان، ولم يبق من شكل المرأة التي على يسار اللوحة إلا جزء من الـوجه واليد وهـي تقطف العنب.

ومن المعبد المقابل للسوق عثر على أجزاء من لوحات فنية. اللوحة الأولى منها تمثـل امرأة ترتدي رداءً فضفاضاً، ويبدو من خلال وضع يدها على البطن،

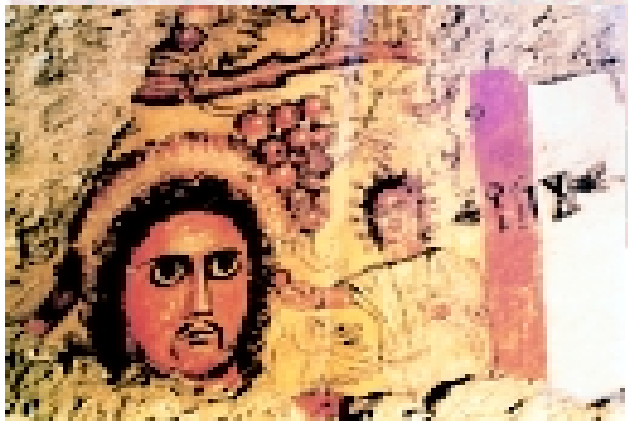

رسم جداري، يصور شخصية عربية مهمة، «قرية» الفاو

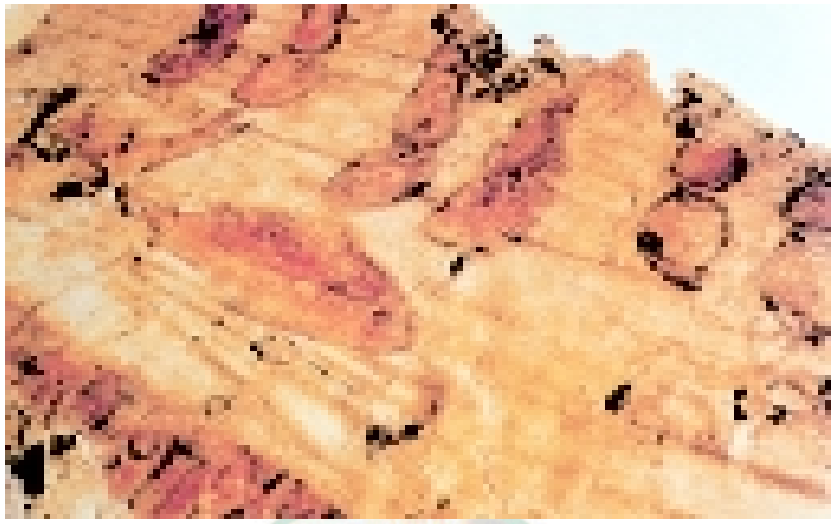

بقايا رسم جداري يصور سنابك خيل على حافة جدول ماء–(قرية) الفاو

بأنها كـانت حاملاً. أما اللوحة الـثانية فتعكس جزءاً من منظر احتفظ بأشكال سنابـك الخيل على حافـة جدول ماء، ويظهر إلى الأسفل شكل لسمكة تسبح.